١ ــ أزواج أبو العباس السفَّاح

ذكر «ابن عبد ربه الأندلسي» في «العقد الفريد»: ولد «أبو العباس؛ عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب» مستهَلَّ رجب سنة أربع ومائة، وبويع له بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وتوفي بالأنبار لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، فكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر.

وأمه «ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المَدَان»[١].

وقال «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: «السفاح» أول خلفاء بني العباس «أبو العباس؛ عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم».

ولد سنة ثمان ومائة ـ وقيل: سنة أربع ـ بالحميمة من ناحية البلقاء، ونشأ بها، وبويع بالكوفة، وأمه «ريطة الحارثية»، حدث عن أخيه «إبراهيم بن محمد» الإمام. وروى عنه عمه «عيسى بن علي» وكان أصغر من أخيه «المنصور».

أخرج أحمد في مسنده، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: **«يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان، وظهور الفتن، يقال له السفاح، فيكون إعطاؤه المال حَثياً»**.

وقال عبيد الله العيشي: قال أبي: سمعت الأشياخ يقولون: والله! لقد أفضت الخلافة إلى بني العباس، وما في الأرض أحد أكثر قارئاً للقرآن، ولا أفضل عابداً ولا ناسكاً منهم[٢].

---

(١) العقد الفريد (٥/١١٣).

(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٢٦.

وروى المدائني، عن جماعة؛ أن الإمام محمّد بن علي بن عبد الله بن عباس، قال: لنا ثلاثة أوقات: موت «يزيد بن معاوية»، ورأس المائة، وفتقٌ بإفريقيَّة، فعند ذلك تدعو لنا دُعَاة، ثم تقبل أنصارنا من المشرق حتى ترِدَ خيولُهم المغرب، فلما قتل «يزيد بن أبي مسلم» بإفريقيَّة، ونقضت البربر، بعث «محمد الإمامُ» رجلاً إلى خراسان، وأمره أن يدعو إلى الرضا من آل «محمد» ﷺ ولا يسمي أحداً، ثم وجه «أبا مسلم الخراساني» وغيره، وكتب إلى النقباء فقبلوا كتبه، ثم لم ينشَب أن مات «محمد»، فعهد إلى ابنه «إبراهيم»، فبلغ خبره «مروانَ» فسجنه، ثم قتله، فعهد إلى أخيه «عبد الله» وهو السفاح، فاجتمع إليه شيعتهم، وبويع بالخلافة في ثالث ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وصلى بالناس الجمعة، وقال في الخطبة: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، فكَرَّمه وشَرَّفه وعَظَّمه، واختاره لنا، وأَيَّدَه بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه، والقُوَّام به، والذَّابِّين عنه، ثم ذكر قرابتهم في آيات القرآن، إلى أن قال: فلما قبض الله نبيه ﷺ قام بالأمر أصحابه، إلى أن وثب بنو حرب، و«مروان»، فجاروا واستأثروا، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فانتقم منه بأيدينا، ورَدَّ علينا حقنا ليمُنَّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وخَتَم بنا كما افتتح بنا، وما توفيقنا أهل البيت إلَّا بالله، يا أهل الكوفة! أنتم محل محبتنا، ومنزل مودتنا، لم تَفْتُروا عن ذلك، ولم يُثْنِكُم عنه تحامُلُ أهل الجور، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدتُ في أعطياتكم مائة مائة، فاستعدوا فأنا السفَّاح المبيح، والثائر المبير.

وكان «عيسى بن علي» إذا ذكر خروجهم من الحميمة يريدون الكوفة، يقول: إن أربعة عشر رجلاً خرجوا من دارهم يطلبون ما طَلبنا لعظيمةٌ هممهُم، شديدة قلوبهم، ولما بلغ «مروان» مبايعة السفَّاح، خرج لقتاله، فانكسر، ثم قتل، وقتل في مبايعة السفاح من بني أمية وجندهم ما لا يُحْصى من الخلائق، وتوطَّدت له الممالك إلى أقصى المغرب.

قال الذهبي: بدولته تَفَرَّقت الجماعة، وخرج عن الطاعة ما بين تاهرت وطبنة إلى بلاد السودان، وجميع مملكة الأندلس، وخرج بهذه البلاد من تغلَّب عليها، واستمرَّ ذلك.

مات السفَّاح بالجُدَري في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وكان قد عهد إلى أخيه «أبي جعفر»، وكان في سنة أربع وثلاثين، قد انتقل إلى الأنبار، وصيَّرها دار الخلافة[١].

وروى «ابن عساكر» في كتابه «أعلام النساء» في ترجمته لأم سلمة بنت يعقوب، قال: هي «أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم» القرشية المخزومية. امرأة حازمة، كانت تحت «عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك»، ثم خلف عليها «مسلمة بن هشام بن عبد الملك»، ثم تزوجها «أبو العباس السفاح».

وعن الزُّبَيْر، قال: ومن ولد «سلمة بن عبد الله»: «أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله»، كانت عند «مسلمة بن هشام بن عبد الملك» ثم خلف عليها «أبو العباس» أمير المؤمنين «عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس»، فولدت له «محمداً» و«ريطة» ابني «أبي العباس».

كانت «ريطة بنت أبي العباس» عند «المهدي» أمير المؤمنين، ولدت له «علياً» و«عبيد الله» ابني «المهدي»، وأمُّ أمِّ سلمة بنت يعقوب «هند بنت عبد الله بن جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر بن كلاب»، ولأخيها «حبيب بن جبار» يقول «الأعور بن براء» الكلبي:

لقد علم ابن جبار بن سلمى ... حبيب إنما الدنيا مَتَاعُ
وألَّا يخلد الإبل الصفايا ... ولا طول الإهابة والشياعُ[٢]

قال المدائني: إن «العباس بن الوليد بن عبد الملك» لما وجهه «الوليد بن يزيد بن عبد الملك» لإحصاء ما في خزائن «هشام» أمره ألَّا يعرِض لمسلمة بن هشام، لأنه كان يكفُّ أباه عن «الوليد»، وكان «مسلمة» يشرب، فلما قدم «العباس» كتبت إليه «أم سلمة»: إن «مسلمة» ما يضيق من الشراب، ولا يهتم بشيء مما فيه إخوته، ولا لموت أبيه، فلما راح «مسلمة» إلى «العباس» قال له:

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٢٧.
(٢) الإهابة والشّياع: الصياح بالإبل ودعاؤها.

يا مسلمة! كان أبوك يرشحك للخلافة، ونحن نرجوك لغير ما بلغني عنك، وأنَّبَهُ وعاتبه على الشراب، فأنكر «مسلمة» ذلك، وقال: من أخبرك بهذا؟ قال: كتب إليَّ «أم سلمة»، فطلَّقها في ذلك المجلس، فخرجت إلى «فلسطين» وبها كانت تنزل، فتزوجها «أبو العباس» السفاح هناك.

قال «أبو عبد الله الزبيري»: كانت أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد بن المغيرة عند «عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك» ثم خلف عليها «أبو شاكر؛ مسلمة بن هشام بن عبد الملك»، فإما فارقها وإما مات عنها، فخرجت مع جواريها وحشمها مبتدية نحو الشَّراة ـ موضع بين دمشق والمدينة ـ.

فبينا هي ذات يوم جالسة، إذ مَرَّ بها «أبو العباس؛ عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس» وهو يومئذ عَزَب، فأرسلت إليه مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها، فجاءته الجارية، فأبلغته السلام، وأدَّت إليه الرسالة، فقال: أبلغيها السلام، وأخبريها برغبتي فيها، وقولي لها: لو كان عندي من المال ما أرضاه لك فعلت، فقالت لها: قولي له: هذه سبعمائة دينار، أبعث بها إليك، وكان لها مال عظيم وجوهر، وحشم كثير، فأتته المرأة فعرضت ذلك عليه، فأنعم لها، فدفعت إليه المال، فأقبل إلى أخيها فخطبها إليه فزوَّجه إياها، فأرسل إليها بصَدَاقها خمسمائة دينار، وأهدى إليها مائتي دينار، ثم دخل عليها فإذا هي على منصة، فصَعِدَ إليها، فذكر خبراً.

قال «إسحاق» ـ يعني ابن إبراهيم الموصلي ـ: قال «شبيب بن شيبة»: دخل «خالد بن صفوان» التيمي على «أبي العباس» وليس عنده أحد، فقال: يا أمير المؤمنين! إني والله ما زلتُ منذ قلَّدك الله خلافته أطلب أن أصير إلى مثل هذا الموقف في الخلوة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب حتى أفرغ فعل.

قال: فأمر الحاجب بذلك، فقال: يا أمير المؤمنين! إني فكرت في أمرك، وأجلت الفكر فيك فلم أرَ أحداً له مثلُ ما قلَّدك، أقل اتساعاً في الاستمتاع بالنساء منك، ولا أضيق فيهن عيشاً، إنك ملكت امرأة من نساء العالمين،

واقتصرت عليها، فإن مرضتْ مرضتَ، وإن غابت غبتَ، وإن عَرَكتْ ـ حاضت ـ عركتَ وحرمت نفسك، يا أمير المؤمنين التلذُّذَ باستطراف الجواري، وبمعرفة اختلاف أحوالهن، والتلذُّذ بما يُشْتَهَى منهن.

إن منهن يا أمير المؤمنين الطويلةَ التي تشتهى لجسمها، والبيضاء التي تستَحَبُّ للونها، والسمراء اللَّعْسَاء، والصفراء العجزاء، ومولَّدات المدينة، والطائف واليمامة ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر، وبنات سائر الملوك، ما يشتهي من نظافتهن وحسن أنسهنَّ، وتحلَّل بلسانه، فأطنب في صفات ضروب الجواري وشوَّقه إليهن.

فلما فرغ «خالد» قال: ويحك! ما سلك مسامعي والله كلام قط أحسن من هذا، فأعد عليَّ كلامك، فقد وقع مني موقعاً.

فأعاد عليه «خالد» كلامه بأحسن مما ابتدأه، ثم قال: انصرف.

وبقي «أبو العباس» يفكر فيما سمع من «خالد» يقسِّم أمره، فبينا هو يفكر، إذ دخلت عليه «أم سلمة»، وقد كان «أبو العباس» حَلَف ألَّا يتَّخِذَ عليها ووفَّى لها، فلما رأته مفكِّراً متغيِّراً، قالت له: إني لأُنكِرُكَ يا أمير المؤمنين! فهل حدث أمر تكرهه، أو أتاك خبرٌ ارتَعْتَ له؟ فقال: لا، والحمد لله، ثم لم تزل تستخبره حتى أخبرها بمقالة «خالد».

قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ فقال لها: ينصحني فتشتمينه، فخرجت إلى مواليها من «البُخَارِيَّة»، فأمرتهم بضرب «خالد».

قال «خالد»: فخرجت إلى الدار مسروراً بما ألقيت إلى أمير المؤمنين، ولم أَشُكَّ في الصِّلَة، فبينا مع الصحابة واقفاً، إذ أقبلت «البُخَارِيَّة» تسأل عني، فحققتُ الجائزة والصلة، فقلت لهم: ها أنذا، فاستبق إليَّ أحدهم بخشبة فلما أهوى إليَّ غمزتُ بِرْذَوْني ولحقني فضرب كَفَلَه، وتنادى إليَّ الباقون، وغمزت البِرْذَوْن فأسرع، ثم راكضتهم ففُتُّهم، واختبأت في منزلي أياماً، ووقع في قلبي أني أُتيتُ من قبل «أم سلمة»، فطلبني «أبو العباس» فلم يجدني، فلم أشعر إلَّا بقوم قد هجموا عليَّ، وقالوا: أَجِبْ أمير المؤمنين، فسَبَقَ إلى قلبي أنه الموت، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، لم أَرَ دَمَ شيخ أضيع.

فركبت إلى دار أمير المؤمنين، ثم لم ألبث أن أُذِن لي فأصبته خالياً، فرجع إليَّ عقلي، ونظرتُ في المجلس، وبيت عليه ستور رقاق، فقال: يا خالد! لم أرك، قلت: كنتُ عليلاً.

قال: ويحك! إنك وضعت لأمير المؤمنين في آخر دخلة دخلَتها عليَّ من أمور النساء والجواري صفة لم يخرق مسامعي كلام قط أحسن منه، فأعده عليَّ، قال: وسمعت حساً خلف الستر ـ فقلت: نعم، يا أمير المؤمنين! أعلمُتك أن العرب إنما اشتَقَّت اسم الضَّرَّتين من الضُّر، وإن أحداً لم يكن عنده من النساء أكثر من واحدة إلَّا كان في ضُرٍّ وتنغيص.

قال له «أبو العباس»: لم يكن هذا في الحديث، قال: بلى، والله يا أمير المؤمنين! قال: فأُنْسِيتَ إذاً، فأتمم الحديث، قال: وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافي القدر يغلي عليهن.

قال: برئت قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنتُ سمعتُ هذا منك، ولا مَرَّ في حديثك، قال: وأخبرتك أن الأربع من النساء شر مجموع لصاحبه يشيِّبنه ويهرمنه ويحقرنه ويقسمنه، قال: لا، والله! ما سمعتُ هذا منك ولا من غيرك، قلت: بلى، والله يا أمير المؤمنين! قال: أفتكذبني؟ قلت: أفتقتلني؟ نعم، والله يا أمير المؤمنين وأخبرتك أن أبكار الإماء رجال، إلَّا أنهن ليست لهن خُصًى.

قال «خالد»: فسمعتُ ضحكاً من خلف السِّتر، ثم قلت: نعم، وأخبرتك أن عندك ريحانة قريش، وأنك تطمح بعينك إلى النساء والجواري، قال: فقيل من وراء السِّتر: صدقتَ والله يا عماه! وبهذا حدثتَه، ولكنه غيَّر حديثك، ونطق عن لسانك، فقال «أبو العباس»: ما لك؟ قاتلك الله وفعل بك وفعل.

قال: فَانْسَلَلْتُ، قال: فبعثت إليَّ «أم سلمة» بعشرة آلاف درهم، وبِرذون وتخت، قال القاضي «أبو الفرج»: قوله في هذا الخبر: السمراء اللَّعْساء: التي في شفتها سمرة وسواد، ومن ذلك قول ذي الرُّمة:

لمياء في شفتيها حوة لعسُ وفي اللثاتِ وفي أنيابها شَنَبُ

اللَّمَى: مقصور، سمرة في الشفة، والحوة: الحمرة إلى السواد شبيه به، واللَّعَس: مثل ذلك، والشَّنَب: برد وعذوبة في الأسنان[١].

قال «السيوطي»: قال الصولي: وكان «السفَّاح» أسخى الناس، ما وعد عِدَةً فأخَّرها عن وقتها، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها.

وقال له «عبد الله بن حسن» مرة: سمعت بألف ألف درهم، وما رأيتها قط، فأمر له بها، فأُحْضِرَت، وأمر بحملها معه إلى منزله.

قالوا: وكان «السفاح» سريعاً إلى سفك الدماء، فأتبعه في ذلك عماله[٢].

ولعل الكرم يُغَطِّي الكثير من العيوب، وبه تمحى الخطايا والذنوب، وتقع في أسر أهله القلوب، وصدق القائل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

(١) أعلام النساء، ص: ٦٤ ـ ٦٧.
(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٢٨.